القضية

دعني أحكِ لك ما حدث باختصارٍ شديدٍ..

كنت قلقًا، الحقيقة أنني دائمًا قلق..

قلـق عـلى الماضي الذى يتـم العبث به بلا توقف، قلق على المسـتقبل الـذى يتم تدميره بانتظام، قلق من الحاضر الذى لا نسـتطيع أن نعيشـه أو حتى نتعايش معه.

أنا دائمًا قلق، أنا القلق الأبدي..

دائـمًا تزحف تحت جلـدي أمواج التوجس فيتحـول لـ جلد إوزة، وشعر يدى دائمًا منتصب.

أول مـرة رأيته فيها كان يعتلي منصت إحـدى الندوات في جامعتنا، كنت طالبًا في تلك الفترة، لم ألتحق بسلك التدريس الجامعي بعد.

لم أعرفـه ولم يعرفـه أحد من الطلبـة فقط، وجدت بعض الأسـاتذه يتهامسـون، كان أسـتاذًا من خارج الجامعة. دَرَسَ بل و دَرّس أيضًا في عدة جامعات أوربية. ألقى محاضرة لم أفهم منها شيئًا بصفة شخصية.

كانت الحـرب قد انتهت لتوها، وكان الجميـع في تلك الفترة مازال يتحدث عن الحرب، المستقبل، ماذا بعد..؟

أن يظـل نصـب عينيـك هدف واحـد لا غـير. شيء مهـم لتحقيقه ولكنك تشعر بالخواء بعد انهائه.. تشعر بأن الدنيا توقفت، تشعر بأنك لا شيء، أنك بلا فائدة.. صمت لبرهة، وهو يكمل مبتسـمًا، في الحقيقة أنا دائمًا أشعر بأني لا شيء وبلا فائدة حتى دون أن أنجز شيء مهم.

كان ذلك الأسـتاذ في الخمسـين من عمره، ارتحل إلى كل بلاد أوربا، وله شـهادات جامعية من عدة دول منها. ولكني عندما سألت عنه بعد ذلـك عرفت أنـه الغمـوض بعينه، كان يتحـدث بحماس مـدع النبوة. بغموض مشـعوز محترف، بثقة من يتلو نصًا مقدسًـا.. ولما أنهى كلمته التي لم أفهم منها شيئًا قال بأسلوبه الغريب:

«أنتم شباب ثائر يبحث عن المستقبل، وأنا عندي الحل. لكنه يحتاج إلى رأي الشـباب ومناقشـات الشـباب. ووقت الندوة لا يسـمح. من يريد أن يشـارك رسـم المسـتقبل فليأتي غدًا في السـاعة السادسة مساءً، وحدد عنوانًا».

لم يلتفت الكثير إلى كلامه؛ لأن المحاضرة نفسها لم تلفت نظرهم من الأصل، ولكني ذهبت بدافع الفضول. كنت أعتقد أني سأكون وحيدًا، لكني وجدت أربعة عشر زميلًا آخرًا ينتظرون ودخلنا معا في السادسـة مساءً خمسة عشر شابًا.

طرقنا الباب وفتحت لنا خادمة عجوز، وأدخلتنا إلى حجرة الاستقبال، لم يتأخر الأستاذ وعندما دخل لم يلق التحية ولم يرحب بنا، إنما جلس في صدر المجلس صامتًا قليلًا ثم قال:

«إذا أنتم كل من حضر، لا يمكنكم التصور مدى أهمية ما سنتحدث عنه، ما نحن مقبولون عليه.. سيكون لكم شرف عظيم وستكون عليكم مسئوليات جسام، فأنتم من ستنقذون البشرية وخارج هذا المجلس لا كلام بينكم، ولا زيارات لي إلا في الأوقات المحددة مسبقًا هذا دستور».

قال أحدهم متزلفًا:

علمنا يا أستاذ.

قال بغباء مستفسرًا:

أعلمكم ماذا..؟

قلت وقد ضقت ذرعًا:

ما أتينا لنتعلمه وننقذ البشرية، الحكمة يا أبنائي، فراشة لا تحط على كف غليظة.. ويجب أن تنزل بكامل إرادتها.. ولكن إن حاولت الإمساك بها لن تستطيع.

قال آخر:

ماذا نفعل لتحط على كفنا ونكون أَكْفَاء لها؟

صـمـت طويلًا ثم قال:

هـذب روحك أولًا، كل منكم يدعو في اتجاه إلى فلسـفتنا وحكمتنا (النورانيـة) التـي سـتتخذ اسـمى «أنـا مؤسسـها: الدكتور نـور الحياة الصمـدي». تدعون في كل مكان، في الجامعة، في الحي، في المواصلات. أما في جلساتنا فالتأمل لعشر جلسات ثم يأتي الكلام.

كيف ندعو لشيءٍ لا نعرف عنه شيئًا؟

يجب أن يكون هناك ما ندعو له.

أدعـو إلى شيءٍ عظيم. وكـما أعدُكم، أعِدوا أعوانكـم وتلاميذكم. أنتـم الآن حواريـو النوارنيـة، كل منكـم يجـب أن يشـكل فصيـل من الأعوان والتلاميذ.

قولت قبل أن أُصاب بالفالج:

كيف علمت يا أستاذنا أننا أَكْفَاء لأن نكون حواريّي النورانية.

ابتسم في غموضٍ:

أنا أعرف كل شيءٍ.

لكن ما هى الخطوط الأولى؟

لم يجـب، كان ينظـر إلى لا شيء فـصمتنـا، وظـللنـا هكذا سـاعات مرت كالدهر، ثم انسحب من بيننا معلنًا انتهاء الجلسة..

لم أكـن أنـوي أن أذهـب في الجلسـة الثانيـة، ولكن ذهبـت لأرى ما

سيحدث، وكانت جلسة واحدة في الشهر. أما الغريب أني عندما ذهبت، وجدت كافة الزملاء الأربعة عشر.

ومع أننا لم نتعارف، ومع أننا لا نعرف بعضنا البعض – مجرد زملاء في نفس الجامعة – بل إن بعضهم لم أكن أعرف اسمه، ولم نحاول أن نتعارف، مجرد سلام عادي ثم صعدنا سويًا وقال أحدهم:

رجاءً إن كان أحدكم يفهم شيئًا يشرح لي، فأنا أشعر أنني الحمار الوحيد.

قلت له في ثقة:

كلنا حمير جر فلا تبتأس.

نظر لي بعضهم شزرًا، وعندما وصلنا للباب فتحت الخادمة بعد القرع كالمعتاد. في حجرة الاستقبال، فالصمت في انتظار الأستاذ، عندما دخل الأستاذ هذه المرة لم يقل حرفًا أبدًا. الصمت لساعات أخرى، ثم انصرافه بدون كلمة، هكذا حتى وصلنا للجلسة العاشرة. كادت العيون تقفذ من محاجرها من الترقب والشوق إلي سر إنقاذ البشرية، ولكننا كنا قد وصلنا إلى سبعة أفراد فقط. فقد تساقط بعضهم على الطريق الطويل خلال عشرة أشهر.

قال أحد الزملاء بعد صمتٍ طويلٍ، وقد بان في عينيه الخبل:

«أستاذي ومعلمي ومنقذي خبِّرنا عن السر».

التفت إلى الأستاذ وقال:

أي سر..؟

قال أحدهم في خجل العذارى:

سر إنقاذ البشرية.

التفت الأستاذ إلى الآخر، وقال في غضبٍ:

إن لم تكونوا علمتم حتى الآن فلا فائدة من تعليمكم.

ثم ترك المجلس وذهب غاضبًا.

كنا نتبع التعليمات ولا نتكلم أو نلتقي معًا، ولكننا ذهبنا بعد شهر دون اتفاق وتقابلنا على مدخل العمارة وصعدنا دون كلمة، وجاء الأستاذ وبعد صمتٍ طويلٍ قال أحدهم:

لقد توصلت للسر يا أستاذ.

التفت الأستاذ إليه، ثم التفت ناحية أخرى وسأل:

وأنت..؟

وأنا كذلك.

أحسست أني أغبى أهل الأرض.

بارك الله فيكم يا أبنائي، اذهبوا وانشروا النور إليه، لقد وصلتم للحكمة، فلن أضيف لكم جديدًا.

ثم ترك المجلس وذهب وهو يُحدّث نفسه من الفرح.

سألت ذلك الزميل على السلم:

ما هو السر..؟

لا أعرف كنت أرغب أن أفك عقدة لسانه لنتناقش.

إلى أن نأتي الشهر القادم وبعضنا يقول يعرف، والبعض الآخر يقول لا يعرف. لنعرف نهاية المهزلة.

والتقينا بعد شهر، وجلسنا ننتظر الأستاذ وعندما جاء بادرته قائلًا:

أنا لم أتوصل لشيءٍ يا أستاذ لم أعرف شيئاً.

التفت ناحيتي، ثم التفت ناحية آخر، وقال:

وأنت..؟

عرفت يا أستاذ.

نظر ناحية آخر، فقال مسرعًا:

وأنا كذلك عرفت.

وكذلك فعل الثالث والرابع، ولكن السادس والسابع قالوا مثلي:

تفكر برهة، ثم قال:

«كلكم أبنائي.. على الذين يعلمون أن يخبروا الذين لا يعلمون.. وإن اختلفتم. فأنا أحكم بينكم. ولا تنسوا أبدًا أن النورانية هى الحل الوحيد، وعليكم عبء نشرها بين الناس».

وتركنا دون أن نبث ببنت شفة كالعادة تركنا إلى الداخل.

وجئنا بعد شهر آخر، وأنا كلي عزم أن أنهي هذه المهزلة، بأن أثبت

أنـه معتوهٍ، مـدعٍ، أو يثبت لي أنه رجل عظيـم.. وقرعنا الباب وفتحت الخادمة.. كانت تلبس الأسود، وكانت أول مرة تتكلم فيها ولم تقل إلا (لقد مات سيدي).

ونزلنا وبدأنا الكلام، وكنت أنا البادئ:

كان معتوها رحمة الله عليه.

قال آخر في حدةٍ وهو يجفف الدموع من عينيه:

بل أنت المعتوه.. لقد كان رجلًا صالحًا يريد إنقاذ البشرية.

قال ثالث:

بل كان نبيًا، ولم يستمع إليه أحد، نحن تلامذته وعلينا عبء كبير.

قال رابع في سخرية:

نبى..! إنه نصاب لم يقل طوال عام إلا ثلاثة جملٍ ولم تكن مفيدة.

قال الخامس:

كلكم لم يفهم لقد ألقى إلينا علاج البشرية، إنه التأمل والبعد عن شهوات.

الجسد والتقرب من الروح والسمو بها.

قال السادس:

بل على العكس إنه يقول أرضِ جسدك ترضَ عنك روحك، أغرق نفسك في إرضاء جسدك تسعد روحك، وترضى نفسك وبالتالي تسعد البشرية جميعها.

قال الأخير:

إنه زنديق، لا يعرف شيئًا عن الدين، أضاع وقتنا في لا شيءٍ.

قلت أنا في صبرٍ:

يا إخواني لنعتبر كأن شيئًا لم يحدث، ولنستكمل حياتنا ولا نغير من أمرنا شيئًا.

ولكني وجدتهم يتفرقون من حولي، ووجدت كل منهم في طريقه.. الغريب أنه لم يكن هناك ستة طرق، ولكني بالفعل لم أجد اثنين في طريقٍ واحدٍ.

(تمت)